أنا أقترح، أنت تُقنع، وهو يغسل الدماغ

«تركت الطبيعة هذه الصبغة في الدم

أن جميع الرجال يصبحون مستبدين إن استطاعوا».

دانيال ديفو Daniel Defoe، **تاريخ عريضة كنتيش** The History of the Kentish Petition

بحثت في الفصول السابقة في مزاعم غسيل الدماغ الموجهة ضد مجموعة من الممارسات الاجتماعية: الدين، والسياسة، والإعلان، والتعليم، والطب النفسي، والعلاج النفسي. إن جميع المؤسسات التي تجسد هذه الممارسات تعمل على تغيير عقول الناس، وجميعها مما يمكن أن يسميها لويس ألثوسير Louis Althusser بأجهزة فكر مذهبي وقمع لمصلحة الدولة ؛ فهي تحاول أن تنشر بالقوة، أو الخفاء، أو الإقناع، مجموعة من الأفكار التي تؤثر في السلوك (مذهب فكري). في هذا الفصل، وباختصار نسبي، وبالاعتماد على أفكار من الفصول السابقة، سوف أبحث في مؤسستين اجتماعيتين أخرَيين: الجيش ونظام العدالة الجنائية. وبعمق أكثر نسبيًّا سأبحث أبسط الوحدات اجتماعية، هي الأسرة، مستخدمًا مثالًا عن العلاقات المتعسفة لدى الكهول لمعالجة قضية غسيل الدماغ بين فرد-إلى-فرد، وأخيرًا، سوف أبحث في إحدى أكثر الممارسات الاجتماعية خبثًا: التعذيب.

الجيش

«يُهرم الجيش الرجال أسرع من القانون والفلسفة؛ إنه يعرضهم أكثر للجراثيم التي تُضعف وتُدمّر، وتحجبهم كليًا عن التفكير، الذي يحفز ويحافظ».

هـ.ج. ويلز H.G. Wells، Bealby

توفر القوات المسلحة للدولة الوسائل الأساسية للدفاع والهجوم ضد أولئك الذين يحددهم المذهب الفكري للدولة على أنهم أعداء، سواء في الداخل أو الخارج. والوظيفة الفكرية المذهبية الخاصة للجيش هي تحويل المواطنين -الذين يتعلمون عادة منذ الطفولة أن القتل خطأ- إلى

عناصر مستعدة للقتل، ولتحقيق ذلك، يؤكد الجيش أهمية طاعة السلطة. ووفق ما بينت تجارب مليغرام Milgram، فإن إقناع الناس الاجتماعيين بدرجة عالية، والمتحررين، واللطفاء عادة بأذية الآخرين لسبب ما أمر سهل بصورة مفزعة إذا قُبلت السلطة التي تعطي الأوامر. يعلِّق إلياس كانيتي Elias Canetti أن هذا «النظام من الأوامر ربما يكون أوضح ما يكون في الجيوش، ولكن لا يكاد يوجد أي حقل في الحياة المتحضرة لا تصل إليه الأوامر ولا يوجد أحد منا لا تؤثر فيه»[1].

يسهِّل الدور الاجتماعي الأساسي للسلطة الممنوحة للجيش بحكم دوره في الدفاع عن الدولة، من قبولها، وتقدم الدولة المسوِّغ الطاغي لذلك وليس الجيش نفسه. حسب الموقف، قد يكون هذا المسوغ واضحًا وراسخًا، كأن يكون -على سبيل المثال- الحاجة إلى الدفاع عن الأرض، أو المواطنين، أو مواطني القوى الحليفة، وإذا لم توجد مسوغات راسخة، تقدَّم مسوغات أكثر تجريدًا؛ مثل تهديد الحريات، أو القيم، أو (طريقتنا في الحياة). وعندما تكون المسوغات قابلة للتحدي، وذلك حين تكون سلطة السياسيين التي تدافع عن المسوغات غير مقبولة بالضرورة؛ عندها تكون أفضل كلما كانت أكثر رسوخًا، أما عندما تكون السلطة السياسية قوية، فإن الأفكار الأثيرية المجردة تفي بالغرض.

إن معرفة أن الإجراءات مطلوبة وموافق عليها من قبل الدولة يمكن أن تساعد على زيادة الطاعة وتقليل التوتر الناتج من تنفيذ هذه الإجراءات، وعندما تسوء الأمور فيمكن استعمال مسوغٍ مجرد اتباع الأوامر، كما حدث مع الجنود النازيين بعد الحرب العالمية الثانية. يعمل جنود الدولة عادة في بيئة يستطيعون أن يفترضوا فيها أن الأوامر قد أصدرت ضمن إطار قانوني وسياسي تحظى قوانينه بقبول واسع، ولكن الإجراءات المتطرفة مثل القتل، حتى في الحرب التي تلتزم باتفاقية جنيف، يمكن أن تسبب توترًا شديدًا لأولئك الذين يقدمون على القتل.

لذلك طوَّر التدريب العسكري عددًا من طرائق تقليل التوتر، وكما يمكن أن نتوقع، يؤكد مثل هذا التدريب الطاعة، والولاء، والانضباط، وهي فضائل تساعد على الحفاظ المذهب الفكري السائد ونشره، وتتيح انتشار المسؤولية من خلال التسلسلات الهرمية العسكرية والسياسية. تستخدم أيضًا مستويات عالية من النشاط الجسدي في أثناء التدريب، تثبط التفكير المستقل، وتقيد الحرية الشخصية. إن استعمال التقنيات والتأكيد عليها في الحروب الحديثة بالخاصة، يمكن أن يساعد على جعل المعتدي الذي يسحب الزناد أو يلقي قنبلة، بعيدًا عن الضحية التي تطلق عليها النيران أو تفجر إلى أشلاء، وكلما كبرت المسافة، كان المعتدي أكثر تعطشًا للدماء.

وبالفعل، ووفق ما كتبت المؤرخة جوانا بورك Joanna Bourke، فإن دراسة مسحية واسعة الأطياف لجنود المشاة الأمريكيين خلال الحرب العالمية الثانية وجدت أن «الجنود الذين لم يغادروا أمريكا هم الأشد كراهية للعدو، وأن الرجال الذين خدموا في أوروبا يكرهون اليابانيين أكثر من الرجال الذين كانوا يقتلون الجنود اليابانيين في المحيط الهادئ»[2]، أو كما عبر عنها الروائي جون بوشان John Buchan قبل ذلك بثمانين عامًا، «تجد الكراهية أكثر بين الصحافيين والسياسيين في وطنهم منها بين الرجال المحاربين»[3].

تقدم التقنية أيضًا أنشطة معقدة تتطلب انتباهًا ومهارة، ويؤدي ذلك إلى نشوء ما أسماه عالم النفس الاجتماعي روي باوميستير Roy Baumeister (التفكير منخفض المستوى)، الذي يصفه بأنه: «طريقة تفكير صارمة جدًّا، وضيقة، وجامدة، مع التركيز على هنا والآن، على تفاصيل ما يقوم به المرء»[4]. كل شخص ينغمس بعمق في نشاط ما يمر بهذه التجربة؛ إن وصف باوميستير Baumeister هذا يذكرنا (بالحالة العاملية) عند ستانلي مليغرام Stanley Milgram التي نوقشت في الفصل الرابع. أعطى وليام هاملتون William Hamilton الفيلسوف من القرن التاسع عشر عددًا من الأمثلة في كتابه **ما وراء الطبيعة** Metaphysics، تضمنت عالم رياضيات إغريقيًّا كان من سوء طالعه أن كان موجودا في مدينة سيراكيوز في عام 212 قبل الميلاد، عندما هاجم الرومان المدينة واقتحموها.

> **كان أرخميدس Archimedes، كما هو معروف، مستغرقًا في التأمل الهندسي، إلى درجة أن أول ما لفت انتباهه لاقتحام سيراكيوز circulos كان جرحه الذي قتله، وكان صراخه عند دخول الجنود الرومان: «الرجاء عدم الإزعاج»، على الأقل لعلماء الهندسة**[5].

وضع عالما النفس روبن فالشير Robin Vallacher ودانيال واجنر Daniel Wegner التفكير منخفض المستوى ضمن إطار أوسع أسمياه نظرية تحديد الفعل. تبدأ هذه النظرية بملاحظة أن معظم الأفعال غير قطعية؛ أي إنها يمكن أن توصف بأساليب متعددة، باستخدام مستويات مختلفة من الوصف بمصطلحات مختلفة؛ فمثلًا يمكنني التحدث عن حركة إصبعي بلغة المفاصل وتقلص العضلات (وصف آلي، أتعامل به مع إصبعي كما لو أنه آلة)، أو يمكنني وصف الحركة بأنها نقرة على فأرة الحاسوب (وصف وظيفي للحركة يشير إلى غرضها الآني؛ التفاعل مع فأرة الحاسوب)، أو يمكنني القول إنني نقلت المؤشر إلى نص أود أن أجعله بالخط المائل (وصف مقصود، يشير إلى حالتي الذهنية)؛ هذه الأوصاف الثلاثة مختلفة تمامًا، لكنها جميعًا تصف النشاط نفسه.

يرى فالشير وواجنر Vallacher and Wegner أنه «في حين أن الناس قد يفكرون في أي فعل بطرائق عديدة، إلا أنهم يفكرون عادة في فعل ما بطريقة واحدة فقط»[6]، وهذا يعني أنني قد أكون من حيث المبدأ مدركًا للطرائق العديدة التي يمكنني أن أصف فيها حركة أصبعي، ويمكنني إذا ضغطت أن أضع قائمة بها، ولكن في أي لحظة محددة سيكون وصف محدد واحد فقط نشيطًا في أفكاري، وذلك الوصف المحدد فقط ذو صلة بالأسباب التي تدفعني للتصرف على الصورة التي أتصرف بها، فعندما أحرك أصبعي، فأنا أفكر أين أريد أن يكون المؤشر؛ التفكير في العضلات والمفاصل لا يخطر لي.

هناك حركات أصابع محددة -عند تصويب بندقية نحو شخص ما مثلًا- ترتبط بأوصاف ذات مفردات أخلاقية (قتل الناس خطأ)، وتعتمد هذه الأوصاف على نظرةٍ إلى الناس على أنهم غايات بذاتهم، وكيانات مستقلة ذات قيمة، وليسوا مجرد وسائل يمكن من خلالها تحقيق المرء لأهدافه. إذا كان الوصف الأخلاقي نشطًا عندما أكون على وشك تحريك أصبعي، فسيقلل ذلك بصورة كبيرة من فرصة أن أقوم بالفعل؛ إذ إن موانعي الأخلاقية قوية عندما يتعلق الأمر بالقتل، لكن إذا أردت قتل الشخص الذي أوجه إليه البندقية، فسيكون من الضروري تنشيط وصف آخر بدلًا من الوصف الأخلاقي، ومن ثم فالتركيز على تفصيلات المستوى المنخفض للفعل، بدلًا من مضامينه على المستوى العالي، يجعل من السهل سحب الزناد. يعطي واجنر Wegner مثالًا للص عصبي فاجأه صاحب المنزل:

> **«وهكذا، فإن الفعل الذي بدأ في المراحل الباكرة من التخطيط على أنه (حماية نفسي) (حمل مسدس) قد يترجم في خضم اللحظة بمجرد (سحب الزناد)، ولا يفهم إلا لاحقًا فقط من حيث معناه الأكبر ومدلولاته الأخلاقية بوصفه (إزهاق حياة)، على الرغم من أن اللص قد يكون فعل جميع الأشياء التي من شأنها أن تجعل سلوكه يُنظر إليه فيما بعد على أنه مقصود. (حمل المسدس، سحب الزناد)، فإن النية الصريحة (إزهاق حياة) قد لا تكون واردة في عقله سابقًا أو عند تنفيذ الفعل».**
>
> واجنر Wegner، **وهم الإرادة الواعية**، صفحة 160.

يتيح هذا التركيز على التفاصيل للقاتل تجنب التفكير في الحالة الإنسانية للضحية، كما صاغها الباوميستير Baumeister: «ليس فقط أن هذه الطريقة من التفكير تساعدهم على الأداء بفاعلية أكبر، لكنها أيضًا تمنع أي شعور بالذنب» من التدخل في التنفيذ. من هنا يأتي، في جملة هانا أرندت

Hannah Arendt الشهيرة، تفاهة الشر. يمكن أن يجعل الاهتمام الهوسي بالتقنيات والبيروقراطية إرسال الناس إلى حتفهم أسهل بكثير، والأمر نفسه صحيح بالنسبة إلى القتل الذي يرتكب في الحروب.

وتقول جوانا بورك Joanna Bourke، إن قصة التدريب العسكري ليست مجرد قصة طاعة طائشة، إذ يتدرب الجنود فعلًا على أن يطيعوا، لكن كثيرًا منهم يصرون على مسؤوليتهم الشخصية عن أفعالهم، ويتصورون حتى أعداءهم غير المرئيين من منظور شخصي وإنساني. ولمعرفة السبب، يحتاج المرء إلى تذكر أن المشاركة في الجيش ليست دائمًا تجربة قسرية وسلبية، خاصة عندما تكون الخدمة تطوعية وليست إلزامية. بالنسبة إلى الجندي الناجح، تتضمن الفوائد اللياقة البدنية، والمهارات الفنية، والمكانة، والشعور بهوية المجموعة ودعمها الذي يمكن أن يكون بقوة أو أقوى مما تقدمه الطوائف الدينية. في وحدات النخبة بصفة خاصة، يتدرب الأعضاء على النظر إلى أنفسهم بوصفهم كائنات متفوقة، وإلى وحداتهم على أنها عائلاتهم (تقدم الوحدات أحيانًا دعمًا عاطفيًا أكثر مما قدمته عائلاتهم الحقيقية طوال ما مضى). تجادل بورك Bourke في مراجعتها التفصيلية للحربين العالميتين الأولى والثانية والحرب الفيتنامية، أن المشاعر السلبية مثل الكراهية عُدَّت أقل فاعلية في إنتاج جنود جيدين من المشاعر الإيجابية للحب والصداقة التي شُجِّعت ضمن مجموعات الجيش. أضعفت الكراهية ضبط النفس والكفاءة، حيث كانت «مسؤولة عن جعل أيدي الرجال ترتجف عند إطلاق النار على الأعداء»؛ كما تجعل أيضًا الجنود أقل يقينًا بعدالة قضيتهم، وهو ما يزيد بدوره من عدم اليقين والصراع النفسي. وفي المقابل، لاحظت بورك أن حب رفاق السلاح كان محفزًا ممتازًا، «وهو يعد على نطاق واسع أقوى حافز لهجوم قاتل على عدو يُحدَّد أنه يهدد تلك العلاقة». استخدمت تشبيهات من الحب الأخوي، والأبوي، في وصف (نظام الرفاق) بين الجنود. يمكن أن تكون هذه المشاعر الإيجابية قوية جدًّا، وكما هي الحال في الطوائف الدينية القاتلة مثل عائلة مانسون Manson، تقدِّم البيئة الجماعية القوية مع وجود عدو خارجي واضح حوافز ومسوغات قوية للقتل.

هل يعد التدريب العسكري غسيل دماغ؟ مرة أخرى هنا، كما في الفصول السابقة، الاستخدامات المختلفة لمصطلح غسيل الدماغ واضحة: كإهانة، كآلية أو آليات، كمفهوم الملاذ الأخير، أو المثل العليا للشمولية. نقاد الطرائق العسكرية إما أن يكون لهم برنامج قوي رافض للحرب، أو أنهم يبحثون عن نقل السلطة بعيدًا من الجيش. يستخدم مثل هؤلاء النقاد غسيل الدماغ على أنه إهانة عندما يطبق على الجنود غير المجندين إلزاميًّا؛ لأن غسيل الدماغ يتضمن إنكار

الخيار التطوعي (يمكن نظريًّا أن يتطوع المرء لأن يغسل دماغه، لكن غسيل الدماغ الناجح يلغي الحرية، ويضع الاختيار تحت سيطرة غاسل الدماغ)، على الرغم من أن التدريب العسكري قد يغير الناس، فإنه لا يحولهم إلى رجال آليين؛ في الواقع كثيرًا ما يكون دور الاستقلالية الشخصية والدرجة المتاحة للجنود لاتخاذ القرارات فرديًّا كبيرين. من ناحية وظيفية، فقد دُرست دراسة مكثفة الآلية التي يتحول بوساطتها المدنيون إلى جنود، ويزداد فهمها بصورة متزايدة من قبل علماء علم النفس الاجتماعي، وهي تدين بكثير من تمويلها في أمريكا على الأقل للجيش، ويتقلص تبعًا لذلك استخدام غسيل الدماغ كمفهوم الملاذ الأخير.

أما بالنسبة إلى الاستخدام المفاهيمي لغسيل الدماغ بوصفه أعلى مثل للشمولية، فيمكن أن يستحضر بمنزلة تحذير لأولئك الذين يريدون توسيع القوى العسكرية لتشمل المجال المدني، مع تقليل الحريات المدنية وزيادة سيطرة الدولة. ما دام أنه لا يبالغ في هذا الاستخدام، يمكنه أن يقدِّم دافعًا للناس على البقاء متأهبين لأي قمع محتمل. في الغرب، إن كثرة الأصوات التي ترمي إلى أن تكون حراسًا لحريتنا كثيرًا ما تكون ظاهرية أكثر منها حقيقية؛ وكما رأينا في مناقشة الإعلانات في الفصل الثالث، فإن رأي وسائل الإعلام كثيرًا ما يكون متجانسًا بصورة مدهشة، خاصة في أوقات الأزمات. ربما لا يكون إبقاؤنا متيقظين لزحف مذهب فكري أمرًا سيئًا. مع ذلك هناك أساليب عديدة مهمة الدول الغربية فيها ليست شمولية.

العدالة الجنائية

«لتأخذ العدالة مجراها، على الرغم من أن العالم فانٍ».

فرديناند Ferdinand الأول، الإمبراطور الروماني المقدس.

المجال الآخر الذي كثيرًا ما تبدو فيه الدولة زاحفة على حريات مواطنيها هو نظام العدالة الجنائية؛ لا يقتصر تعريف القوانين للجريمة على المفردات مقبولة على نطاق واسع (القتل، والاغتصاب، والاختلاس) بل يعرفها أحيانًا بطرائق أكثر تحديدًا وإثارة للجدل؛ فالمثال المعاصر تقدمه قوانين المخدرات البريطانية المحيرة التي -لأسباب تاريخية إلى حد كبير- تحظر الحشيش وأدوية النشوة المستخدمة على نطاق واسع، في حين تتسامح مع الكحول والتبغ. بالطبع، من السخرية أن تجادل بأن الحشيش يجعلك محبًّا وعقار النشوة يجعلك

تحدق في السقف، في حين أن الكحول يجعلك عدوانيًّا والتبغ يجعلك مريضًا، ولكن المقاييس الموضوعية لإحصائيات الوفيات تشير إلى نقطة مماثلة، كما أوضح ريتشارد دافنبورت-هاينز Richard Davenport-Hines في نقده البليغ للسياسة الغربية المتعلقة بالمخدرات، في كتابه **السعي إلى النسيان**. ففي انتقاده لمجموعة الضغط المعارضة للمخدرات لتصريحها عام 1996م أن «مئات من الأسكتلنديين قد ماتوا من المخدرات في العام الماضي»[7]، لاحظ دافنبورت-هاينز Davenport-Hines أن «الرقم الحقيقي في العام 1995م كان 251، منها 155 جرعات مفرطة من الأفيون، و96 حالة انتحار باستخدام مسكنات مثل الباراسيتامول، يقارن ذلك بموت 20.000 من الأسكتلنديين نتيجة الأمراض المرتبطة بالتبغ، و4000 بسبب الأمراض المرتبطة بالكحول». إذًا، في عام 1995م كان عدد الوفيات بسبب الأدوية (من ضمنها الأدوية المسموح بها قانونيًّا) أقل من 2 في المئة من عدد الوفيات الناتجة بسبب الدخان، وأقل من 7 في المئة من العدد الذي قتله الكحول. لا يمكن عَدُّ السنة أو البلد غير ممثلة هذا التباين:

> **«تحصل في بريطانيا نحو 100.000 حالة وفاة سنويًّا بسبب الأمراض المرتبطة بالتبغ، و30 ألفًا إلى 40 ألف وفاة بسبب الأمراض المرتبطة بالكحول والحوادث، و500 من الباراسيتامول. وفي المتوسط، يسبب الهيروين وتعاطي المذيبات وفاة نحو 150 شخصًا كل عام، في حين يبلغ عدد الوفيات الناجمة عن منشط الأمفيتامين نحو خمسة وعشرين. في السنوات العشر الأولى من الهياج البريطاني، التي تناول في أوجها 500.000 من السكان الأدوية المنعشة في نهاية كل أسبوع، تسبب ذلك في ستين حالة وفاة: بمعدل ست وفيات سنويًّا».**
>
> دافنبورت-هاينز Davenport-Hines، **السعي إلى النسيان**، صفحة 391.

تقود هذه الأرقام إلى الشكوك بأن الهستيريا حول العقاقير غير القانونية تعود إلى عوامل لا صلة لها بالتقدير المنطقي للإحصائيات. إن مثل هذه العقاقير مخيفة ليس فقط لأنها تذهب بالعقل (الكحول يغير العقل)، بل لأنها ترتبط بالعديد من الصفات غير المرغوب فيها: كالفقر، والقذارة، والإقصاء الاجتماعي، والعنف، والجريمة، وتوصف في أحيان كثيرة بنمط لغة الصحف الشعبية المخصصة عادة للأعداء المكروهين، السفاحين، أو الالتهابات القاتلة، وتوسم بالطريقة نفسها التي كثيرًا ما نصم فيها المرض العقلي. يُصوَّر مستخدمو المخدرات على أنهم خطيرون وقذرون؛ يفتقرون إلى القيود الاجتماعية العادية لأنهم (منتشون) أو (مدمون)، لا يمكن

التنبـؤ بسـلوكهم، ولذلـك فهم مرعبون، والوسـائل الوحيدة للتعامل معهم هـي الإقصاء، والعزل، أو ربمـا إعـادة التأهيل (حتمًا ليـس جعل تنـاول المخدرات قانونيًّا). تتضمن جميع هذه الوسـائل فقدان الحرية، والافتراض أنه لا يمكن الوثوق بمسـتخدمي المخدرات ليعملوا بما يناسـب أفضل مصالحهـم الخاصـة. هذه هي خصائص المعرف مذهبيًّا فكريًّا على أنه لا-شـخص، الشـخص الخارجي الذي يناسب لأن يكون نقطة تركيز معقولة للكراهية الجماعية.

بُذِلت جهود ضخمة لتعزيز وجهة النظر هذه؛ التي تقول إن العقاقير غير القانونية شريرة، فـي حيـن أن الأدويـة القانونية ليسـت كذلك، فهل يرجع ذلـك جزئيًّا إلى أن مسـتخدمي العقاقير الذين يسببون المشكلات أغلبيتهم الساحقة من أقل مجموعات المجتمع قوة، ومن ثم فهم هدف سـهل للمذهـب الفكـري للدولـة؟ إن المجتمعـات -مثـل أي مجموعة أخـرى- تكون أكثر تماسـكًا، وأتباعهـا أكثـر طاعة، والقادة أكثر أمنًا، عندما يكون لديهم معارضون محددون جيدًا ليمقتوهم. وقوانيـن المخـدرات أحـد مظاهـر نظام العدالـة الجنائية، حيث تبـدو وظائف الحمايـة، والردع، وتقليـل الضـرر غيـر مقنعة. يضعف نقص الإقناع دعم نظام العدالـة الجنائية بصورة عامة؛ لأنه يترك مجالًا للحجة القائلة إن الوظيفة الرئيسـة للنظام هي زيادة سـيطرة الدولة على مواطنيها. يدعـي ميشـال فوكـو Michel Foucault أن «النقطـة المثالية فـي العقاب اليوم سـتكون انضباطًا لا محـدودًا: اسـتجواب بـلا نهايـة، واسـتقصاء يمتد بلا حـدود إلى ملاحظـة دقيقة وتحليليـة أكثر فأكثـر، وحكـم يكـون في الوقت نفسـه فتحًـا لملف لن يغلق أبـدًا»[8]، فكلما نظَّمـت الدولة تصرفات الفرد بصورة وثيقة، أمكن التنبؤ بسـلوك ذلك الفرد بصورة أكثر دقة، وازدادت كفاءة الدولة في تسيير مصالحها.

هل يعد مثل هذا التحكُّم غسـيل دماغ؟ كما أشـير في فصول سـابقة، فالخوف في لب غسيل الدماغ، هو الخوف من فقدان التحكم؛ ليـس كون أفعال المرء فحسـب بل حتى أفكاره في تلاعب علـى يـد وكالـة خارجية مـا. الأفكار بحـد ذاتها زلقة بمـا يكفي؛ كلمـا تفحصناها بصـورة أقرب ازداد عدم التأكد من سـيادتنا على ما نسـميه ذاتنا، لكننا نتوق لأن نكون قادرين على أن نعكس تلك الصورة من العصر الفكتوري للثقة بالنفس في قصيدة و. إي. هينلي W.E. Henley لم تقهر Invictus:

«أنا سيد مصيري

أنا قائد روحي».

لا نريد أن نفكر في أنفسنا وكأننا قش في مهب رياح السببية، بل على أننا عوامل عقلانية توجه مسارًا دقيقًا؛ قد لا يكون العالم قابلًا للتنبؤ بصورة كاملة؛ قد لا تكون تصرفاتنا قابلة للتنبؤ بصورة كاملة حتى من قبل أنفسنا، لكن هذا أفضل من أن يكون كل ما نقوم به قابلًا للتنبؤ من قبل الآخرين، خاصة أن الآخرين قد يستخدمون التنبؤ في تطبيق السيطرة، بما يخالف أفضل مصالحنا. ربما يكون البشر قد تشكلوا اجتماعيًّا منذ سن مبكرة على فكرة الطاعة، لكنهم إذا جُعِلوا يشعرون بأن تصرفاتهم يتوقعها أو يسيطر عليها أشخاص آخرون (خاصة إذا كان الآخرون سلطة غير مقبولة) فإنهم كثيرًا ما يرتكسون بصورة سلبية جدًّا، وهي ظاهرة سميت (المفاعلة) من قبل عالم النفس الاجتماعي جاك بريم Jack Brehm[9]، لكن لحدوث المفاعلة، يجب أن يشعر (المتفاعل) أن بعضًا من المقاومة أمر ممكن؛ وإلا سيحدث تبني مجموعة من المواقف والسلوكات الانقيادية والمحبطة (العجز المكتسب).

يمكن رؤية هذه الاستجابات -المعارضة أو العجز المكتسب- في العقائد المسيحية المختلفة التي تتعلق بالقدر؛ فكرة أن الله، المسيطر الأقصى (القادر على كل شيء)، يعلم مصير كل واحد منا منذ الأزل، ويمكن العثور عليها أيضًا في العقائد العلمانية المكافئة، عقيدة الحتمية الشديدة (القدر بالنسبة إلى الملحدين) التي تدَّعي أن كل شيء نفعله مقرر بأحداث حدثت قبل ولادتنا بوقت طويل، تعود في نهاية المطاف إلى بداية الكون. يؤكد بعض المسيحيين لطف الله المحبب: «حسنًا، الله يمسك بالخيوط جميعها، لكنه يحبك ويضع أفضل مصالحك في قلبه، وكونه عالمًا بكل شيء، فهو يعرف ما هو خير بالنسبة إليك أكثر كثيرًا منك، فلماذا تقلق؟»، ويضع آخرون أهمية أكبر لفكرة واجبنا في طاعة الله بوصفه سلطة (ليس بالمعنى الذي طبقه واستمتع به فيليب بولمان في ثلاثية مواده المظلمة، ولكن بوصفه حقيقيًّا ومصدرًا فريدًا لجميع القوى)، تطلب في الواقع العجز المكتسب. أما الملحدون -(يقولون لا أحد يمسك بالخيوط، لكننا لا نزال دمى)- فيجدون صعوبة في أن يجادلوا في مدح الإحسان؛ لأن الأسباب والفرص لا يمكن نسبها لشخص، وقد لجؤوا تقليديًّا إما إلى القدرية أو إلى بعض أشكال التوفيقية، وهو الاسم الشامل للمناقشات التي تهدف إلى التوفيق بين الإرادة الحرة والحتمية (سوف أعود إلى هذا الموضوع في الفصل الحادي عشر). هذه العقائد كلها مهما اختلفت هي استجابات لخوفنا من فقدان السيطرة، الرعب في لب غسيل الدماغ.

العنف المنزلي

حتى الآن، تضمنت المواقف التي تناولناها في هذا الفصل مؤسسات اجتماعية وعلاقاتها مع الأفراد، ولكنّ كثيرًا ما يشمل المنظرون الذين يناقشون المذهب الفكري العائلة، (مدرسة الاستبداد) تلك كما وصفها جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill)، في قائمتهم الخاصة بالأجهزة المذهبية الفكرية[10]. يمكن أن تختزل الأنواع المختلفة من العنف التي قد توجد في العائلات، علاقة السلطة إلى أبسط حالاتها: سلطة يفرضها إنسان على إنسان آخر.

وقد يكون هذا التفاعل الاجتماعي الأساسي واحدًا من أشدها حدة وضررًا[11]، ويمكن أن يستخدم المسيء الماهر كل خدعة في ذخيرة فن التأثير؛ من السلطة إلى مصائد الالتزام إلى القوة الوحشية الكاملة، محولًا حتى المقدار المبدئي الضئيل من عدم التساوي في القوة إلى عدم توازن هائل، بحيث إن الشريك المساء له يصبح في حقيقة الأمر عبدًا. يحقق هؤلاء المسيئون درجة من السيطرة على ضحاياهم هي أقرب إلى الفكرة التقليدية لغسيل الدماغ من أي حالة ذكرت حتى الآن، مع استثناء ممكن للطوائف الأشد تطرفًا، وكل ما هو مطلوب هو عدم توازن في الحاجة حيث تقدِّر الضحية معدل (حب) شريكها لها أكثر مما يقدِّر هو معدل حبها له، وتكون مستعدة لتقديم تنازلات من أجل بقائه سعيدًا[12]، وقد تكون معتادة على تفاعلات اجتماعية يقابل فيها التنازل من أحد الشريكين بتنازل من قبل الآخر؛ وقد تكون مكونة اجتماعيًّا للتصرف باحترام أكبر لذوي المكانة أعلى اجتماعيًّا. سوف يحرص المسيء على التصرف كما لو أنه متفوق في أي مجال تحترمه: إذا كانت فخورة بذكائها، فسيكون أذكى منها؛ أو براتبها، فسيكون راتبه أكبر (وإلا فسيجد سببًا وجيهًا لكونه ليس كذلك). سوف يستغل بلا رحمة ميلها إلى القبول بتسوية، حاطًّا من قيمة مساهماتها، ومضخمًا لأي تنازلات يقدمها.

يظهر العنف بوضوح الطبيعة المتدرجة لطرائق السيطرة النفسية، فأدمغة البشر أدوات استكشاف جيدة لما هو جديد، لكن لها عتبات شدة لا يمكن تحتها اكتشاف التغيير، ويجب عليها أن تبذل جهودًا خاصة عند تتبع الملاحظات عبر مُدد زمنية طويلة، وهذا يعني أن الأدمغة رديئة في اكتشاف التغير التراكمي بعيد المدى، إذا كانت كل خطوة من خطوات التغير صغيرة جدًّا. من هنا؛ فقد يستغل المسيء منذ البداية هذا الضعف باختبار تسامح شريكه بطرائق صغيرة؛ ربما

بملاحظة ساخرة هنا أو هناك، وقد ترى ضحية الإساءة، مبدئيًّا، كلَّ إذلال منفرد على أنه شيء تافه (كان متعبًا، كان يومه سيئًا، إنه لا يقصد ذلك)، وما لم تبذل الضحية ذلك الجهد الخاص وتصوِّر الملاحظات على أنها جزء من كل (كحملة مدبرة، سواء كان مخططًا لها أم لا، من قبل المسيء) فإنها لن تضع سجلًّا لها أو لتأثيرها التراكمي على احترامها للذات. تذكَّر أسطورة غلي الضفدع: إذا كان ارتفاع الحرارة بطيئًا بما يكفي فلن تقفز الضفدع أبدًا إلى الخارج، وستغلي حتى الموت، وبطريقة مماثلة يصعِّد المسيء من سيطرته بدرجات بطيئة؛ وفي كل مرة لا تعترض فيها الضحية، ولا تضع حدودًا لتسامحها وتلتزم بها، فستكون الخطوة التالية الضئيلة مؤذية أكثر بقليل، ما يخفض ببطء إيمان الضحية بكِفايَتها، في حين يتزايد إدراكها لقدرات المسيء، فإذا كان أقوى جسديًّا، فقد تتبنى العجز المكتسب. تعزز الإساءة اللفظية المتكررة التي تركز في ضعفها، وتفاهتها، وانعزالها، هذا السلوك، وقد تصل أيضًا إلى الاعتماد على المسيء في كل شيء، خاصة إذا طلب منها -كما تفعل بعض الطوائف الدينية- التخلي عن علاقاتها مع الأصدقاء والعائلة.

أما إذا اعترضت الضحية فسيعتذر المسيء ويصبح لطيفًا، وبعدها بمدة وجيزة سيحاول مرة أخرى، أو ربما يستخدم التهديد: الهجران، الفقر، الإذلال، العنف معها أو مع أطفالها، أما إذا هددته، فسيعرف كيف يلعب بشعورها بالذنب؛ وتصرُّف الولد الصغير العاجز كثيرًا ما يكون فاعلًا جدًّا، لكن مع تقدم العلاقة سوف تقل فرص كونها تحمي نفسها، فالانتقاص المستمر من قدراتها الذي يصدر من شخص أحبته سابقًا، أو لا تزال تحبه لكنها أصبحت تخافه، سوف يغير من صورتها الذاتية، إلى أن تصل إلى التفكير في أنها غير قادرة على التهديد، إذ إننا نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون؛ فإخبار شخص ما بأنه عديم الفائدة في عمله -على سبيل المثال- طريقة فاعلة في تقليل أدائه.

مع مرور الوقت، يمكن أن يحوِّل المسيء شريكته من فرد عامل إلى مخلوق محاصر ومذعور تقلصت آفاقه المعرفية كثيرًا بحيث لا يمكنها تخيل إمكانية هربها من محنتها. لا يقتصر المسيئون على بسط سيطرتهم باستخدام الإساءة اللفظية أو العاطفية و/أو القوة الجسدية، لكنهم أيضًا ينشئون بيئة تكون فيها نظرة الضحية الوحيدة إلى نفسها هي أنها مخلوق عاجز. قد يُدهَش الغرباء إزاء ما ستتحمله الضحية، لكن ذلك لا يعني أنه يوجد شيء غير عادي حول كيفية تحول المرأة، أو الطفل، أو الرجل، إلى ضحية. من البديهي ملاحظة أننا كثيرًا ما نعتقد

أن الأشياء غير عادية عندما لا نفهم الآليات التي شكلتها. الطاووس أو الشعاب المرجانية أمور مدهشة، لكننا إذا عرفنا تاريخها وتاريخ أنواعها فإننا نقبل كل خطوة من هذا التاريخ التطوري الطويل على أنه شيء غير استثنائي، على الرغم من أنه يتركنا -هنا والآن- محدقين في ظاهرة طبيعية رفيعة، وما يصح في الطاووس والشعاب المرجانية يصح أيضًا في المسيئين وضحاياهم.

العنف وغسيل الدماغ

كما أشرت سابقًا في سياقات أخرى، يمكن تفسير الآليات التي تكمن وراء غسيل الدماغ على نحو متزايد من قبل علماء النفس الاجتماعيين. بدأت الحاجة إلى مفهوم الملاذ الأخير تتقلص؛ فأصبحت العملية الغامضة مجموعة من آليات أقل غموضًا، فلا نزال نستخدم غسيل الدماغ على أنه مصطلح ازدرائي، يشير إلى رفضنا لسيطرة المسيء على ضحيته، مشيرًا أيضًا ربما إلى عدم فهمنا للتقلبات والمنعطفات المحددة التي تتطور من خلالها العلاقة القمعية، لكننا نقبل أن تلك الخطوات يمكن من حيث المبدأ فهمها؛ لا تتدخل أي آلية سحرية من غسيل الدماغ هنا.

نلاحظ أيضًا أوجه التشابه بين سلوك المسيء وسلوك النظام الشمولي، كما وصفه الطبيب النفسي روبرت ليفتون Robert Lifton (انظر الجدول 1)، فبالسيطرة على المحيط، يسعى المسيء إلى السيطرة على بيئة الضحية، والتنبيهات التي تصل إلى دماغها، ومن ثم محتوى أفكارها، وكثيرًا ما يستخدم المسيئون عقيدة الاعتراف التي لا يسمح فيها للضحية بأي خصوصية، ويتعين عليها تقديم تقارير مفصلة عن تصرفاتها وأفكارها.

وتتميز الأنظمة الشمولية بمذهب فكري محدد وراسخ بقوة، ويمارسون التلاعب الغيبي وتحميل اللغة، ويصرون على مطالبهم في النقاء، وعلى علومهم المقدسة وأصالة العقيدة على الشخص، فالمذهب الفكري جيد، وما يعارضه سيئ، ما هو إذًا المذهب الفكري للمسيء؟ مثل المذاهب الفكرية جميعًا، هي مجموعة من المعتقدات، تدور في هذه الحالة حول تفوق المسيء. سيعمل المسيء على تعزيز هذه المعتقدات، جزئيًّا بتعظيم التباين بين قوته وعجز ضحيته، وجزئيًّا بإظهار سيطرته عليها، بالقوة إذا لزم الأمر.

حاجج روي باوميستر Roy Baumeister أن احتمال أن يكون الأفراد عنيفين إذا كانت نظرتهم لأنفسهم شامخة، وكانت هذه النظرة مهددة، أكبر منه إذا كانت نظرتهم لأنفسهم وضيعة (ناقش

كتابه **الشر** هذه الفرضية بالتفصيل، وهي تخالف بديهيات كثير من الناس)، بمعنى آخر، العنف هو استجابة لتهديد الأنا الذي يقدَّم فيه لشخص نظرة إلى شخصه تتباين مع صورته هو عن ذاته. بالنسبة إلى الناس الذين ينظرون إلى أنفسهم بشموخ، والذين تكون إنجازاتهم متوسطة، فإن فرص مواجهة مثل هذا التهديد للأنا تكون عظيمة؛ العظيم الحقيقي، ومتوسط الأداء الذي يقبل أن أداءه متوسط، لن يكون مهددًا مثل ذلك. تعني هذه الفرضية أن أعدادًا غير متناسبة من جرائم العنف سوف ترتكب من قبل أفراد وصل تقديرهم لذاتهم إلى مستويات نفسية مرضية، وأقتبس من روبرت هير Robert Hare في كتابه **دون ضمير**: لديهم «وجهة نظر نرجسية ومنتفخة جدًّا عن قيمة ذواتهم وأهميتها، وأنانية مذهلة حقًّا، وشعور بالاستحقاق، ويرون أنهم مركز الكون، وكائنات متفوقة يحق لهم العيش وفق قواعدهم الخاصة بهم». هذا التوريط صحيح، ويقدر الخبراء أن المضطربين نفسيًّا يشكلون واحدًا إلى اثنين في المئة من سكان أمريكا الشمالية، ويرتكبون نحو نصف الجرائم الخطِرة، وقد علَّق هير Hare أن: «انتشار الاضطراب النفسي في مجتمعنا هو نفسه تقريبًا للذهان، وهو اضطراب عقلي مدمر يسبب كربًا يعتصر القلب ألمًا للمريض وعائلته على حد سواء. ولكن حجم الألم والكرب الشخصي المترافق مع الفصام صغير مقارنة بالمجزرة الشخصية، والاجتماعية، والاقتصادية، الواسعة التي يسببها المضطربون نفسيًّا، إنهم يُلْقون شبكة واسعة ويعلق الجميع فيها تقريبًا بطريقة أو أخرى».

يظل الاضطراب النفسي حالة غير مفهومة تمامًا، لكن ما يبدو واضحًا هو أن الصفات الكامنة التي تشكل المتلازمة يمكن أن توجد أيضًا بدرجات متفاوتة في عموم السكان، ومن بينهم المسيئون. ليس جميع المسيئين مضطربين نفسيًّا (على الرغم من أن بعضهم كذلك)، لكن كثيرًا منهم لديه التقدير العالي، لكنه هش، للذات الذي لاحظه باوميستر Baumeister، الميل نحو السلوك الاستغلالي (معاملة الناس الآخرين على أنهم غايات وليسوا وسائل)، وانعدام التعاطف.

بالعودة إلى التشابه بين الأنظمة الشمولية والمسيئين، نستطيع أن نرى أن المسيئين -مثل الأنظمة- يمارسون أشكالًا من التلاعب الغيبي، والعلم المقدس، وتحميل اللغة، ويصرون على طلبهم في النقاء ويقدمون أصالة العقيدة على الشخص، ويكون الحد من تهديدات الأنا التي هي في نهاية الأمر تعبيرات عن مذاهب فكرية بديلة إلى أقصى حد (الحاجة إلى النقاء). تستنكر المذاهب الفكرية الشمولية أي شيء عدا نفسها، وغالبًا ما يحمِّل المسيء لغته بملاحظات سطحية ازدرائية، كثيرًا ما تعتمد على معرفة حقيقة ضئيلة، لا تشوه سمعة الضحية فحسب بل أيضًا

أسرتها، وأصدقاءها، وخلفيتها، وآراءها. الصحة النفسية والجسمية للضحية أقل أهمية من المحافظة على الأنا الهشة للمسيء (أصالة العقيدة على الشخص)، ولا يسمح للضحية بتحدي هذا الوضع على الرغم من أن المسيء قد لا يقدم أي مسوِّغ منطقي لسلوكه. ومثل العلم المقدس، يعد تفوقه أمرًا مفروغًا منه، من قبله أولًا ولاحقًا من قبل ضحيته، ويستخدم التلاعب الغيبي لتأسيس مكانة ضمن العلاقة أقرب ما تكون قدر الإمكان إلى الكائن الأقوى والخارق، أخيرًا لا يحتاج سلب الحياة إلى التشبيه: يمكن أن يستخدم المسيئون العنف القاتل ضد ضحاياهم، الكبار والأطفال على حد سواء، ففي إنجلترا وويلز England and Wales –على سبيل المثال– تظهر الإحصائيات الحكومية أن قرابة 79 طفلًا يقتلون سنويًّا نتيجة العنف، وتنتج معظم هذه الجرائم عن العنف المنزلي[13].

لا يعني قبول هذه الحجج –بالطبع– إنكار أن أسباب السلوك العنيف عديدة ومتنوعة[14]. وبطريقة مشابهة، فإن براعة البشر في محاولات سيطرة بعضهم على بعض لا تقل إدهاشًا عن الطاووس أو الشعاب المرجانية، وإن كانت مشاهدتها أقل إمتاعًا، لكن قضايا الذات وصورة الذات، مثل قضايا الحرية، توجد في لب أي مناقشة لتقنيات التحكم في العقل. لفهم احتمالات التحكم في العقل، من الضروري النظر بدقة إلى هذه الموضوعات، وسوف أقوم بذلك في الجزء الثاني، ولكن أولًا، إلى الحالة الأخيرة الباقية.

التعذيب

أظهرت حالة توماس كرنمر Thomas Cranmer في الفصل الأول كيف تطورت التقنيات المرتبطة بغسيل الدماغ من تلك التي طُوِّرت من أجل استخدامها في التعذيب، في حين أظهرت تجربة الأب لوكا الاستخدام المستمر لتقنيات التعذيب جزءًا من غسيل الدماغ. ووفق ما أشار بيتر سيوفلد Peter Suedfeld في كتابه **التعذيب**، فإن لهذه التقنيات تاريخًا طويلًا: «على الرغم من أنها ليست بكل الأحوال شاملة، فإن لاستخدام التعذيب في انتزاع اعترافات من المجرمين المشتبه بهم تاريخًا يرجع على الأقل إلى المصريين القدماء، ويشمل الحضارتين اليونانية والرومانية والقانون الأوروبي في العصور الوسطى. وكتاب **مطرقة فاعلي الشر** Hammer of Evil–doers، الذي نشر عام 1486م أو نحوه، والذي يعد أفضل دليل موجود من العصور الوسطى لاصطياد الساحرات، زاخر بتقنيات التعذيب. بحلول منتصف القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع

عشر، انخفض بصورة عامة التعذيب القضائي (العلني)، والإذلال العلني (يصف كتاب فوكولت **الانضباط والعقاب** هذه التغيرات). بدءًا من 9 ديسمبر عام 2002م، أعلن الموقع الإلكتروني للأمم المتحدة أن ثلاثة أرباع قائمة الدول الـ 193 دولة طرفًا في اتفاقية الأمم المتحدة لمناهضة التعذيب وقعت عليها[15]. وفي عام 2002م ذكر بيان صحفي صادر عن منظمة العفو الدولية، وهي من أعرق المنظمات التي تقود حملة ضد التعذيب وانتهاك أخرى لحقوق الإنسان، أن «تقرير منظمة العفو الدولية لعام 2002م (الذي يغطي أحداث 2001م) قد وثَّق إعدامات خارج القضاء في 47 بلدًا، وإعدامات قضائية في 31 بلدًا، و(حالات اختفاء) في 35 بلدًا، وحالات تعذيب وسوء معاملة في 111 بلدًا، وسجناء الرأي في 56 بلدًا على الأقل»، وتعتقد منظمة العفو «أن الأعداد الحقيقية أعلى بكثير»[16]، تجب أيضًا ملاحظة أن التعذيب مفهوم مائع نوعًا ما، فعلى الرغم من أنه يوجد إجماع عام أن سمته المميزة هي الإحداث المتعمد للألم أو الإزعاج، غالبًا من قبل عملاء الدولة، فإن تصنيف الحالات الفردية قد يختلف إلى حد كبير بحسب وجهة النظر. وجدت دراسة لتقنيات الاستجواب الشيوعي خلال الحرب الكورية أن كثيرًا من الأسرى الأمريكيين لدى الشيوعيين الصينيين عَدُّوا النظام الغذائي في السجن، وكذلك بالخاصة حقيقةُ أنه كان متوقعًا منهم أن يعبروا عن أنفسهم في أثناء الاجتماعات، وأوقات معينة، «تعذيبًا وحشيًا». ولكن، وفق ما أشار هينكل Hinkle وولف Wolff في كتابهما **الاستجواب والتلقين الشيوعيان (لأعداء الحكومات)**: «المراحيض المكشوفة، والتغوط العلني، هي العادات السائدة في المناطق الريفية من الصين، ولا يبدو أن الصينيين يعدونها أمرًا كريهًا»، وكذلك «ينوي الصينيون الشيوعيون تقديم وجبة غذائية في سجونهم تعادل وجبة فلاح صيني متوسط أو جندي».

توصيفات النموذج (التقليدي) لغسيل الدماغ، مثل تلك التي قدمها مخترع الكلمة، إدوارد هنتر Edward Hunter، تجعل التشابه مع التعذيب واضحًا. كانت هناك أساليب شائعة متنوعة من التعذيب النفسي والجسدي، بالرغم من حقيقة أنه، كما يلاحظ هينكل وولف Hinkle and Wolff، «نادرًا ما كانت المخابرات السوفييتية KGB تستخدم الأغلال، ونادرًا ما كانوا يلجؤون إلى الضرب الجسدي. الضرب الجسدي نفسه -بالطبع- بغيض في المبادئ الشيوعية المعلنة، ويخالف أيضًا تعليمات المخابرات السوفييتية. السبب الظاهري لهذه التعليمات هو أن الضرب يخالف المبادئ الشيوعية، أما السبب العملي بالنسبة إليهم فهو حقيقة أن المخابرات السوفييتية ترى أن القسوة الجسدية المباشرة طريقة غير فاعلة في الحصول على إذعان السجين».

ولكن الضرب الجسدي مظهر واحد فقط للتعذيب الجسدي، و«أحد الأنماط المستخدمة على نطاق واسع هو أمر السجين بالوقوف طوال مدة الاستجواب، أو البقاء في وضع جسمي آخر يصبح مؤلمًا بمرور الوقت»[17]، قد يستخدم كذلك الحرمان من النوم، والعزل، وتحديد الرؤية والحركة والطعام والتبول/التغوط. تمحو مثل هذه الممارسات الخط الفاصل بين التعذيب الجسدي والنفسي، ويمكن أن تكون تأثيراتها كارثية، كما بيَّن آرثر كوستلر Arthur Koestler في كتابه **ظلام عند الظهيرة**. أشار هينكل و وولف Hinkle and Wolff إلى أن «الخصائص الرئيسة لأسلوب العزل في الصين هي نفسها في الاتحاد السوفييتي: العزل الشامل، والملل المطلق، والقلق، وعدم اليقين، والإعياء، وعدم النوم؛ والرفض، والمعاملة العدائية، والضغط الذي لا يحتمل؛ والمكافأة والاستحسان للإذعان»، وهي قائمة تخلط العناصر الجسدية والنفسية، وبالتأكيد لا تتضمن بعض تقنيات التلاعب النفسي تعذيبًا جسديًّا، لكن التعذيب الجسدي له تأثير نفسي لا شك فيه.

التعذيب شموليٌّ مثلُ غسيل الدماغ، هدفه العام هو الهيمنة على الضحية. أورد جون كونروي John Conroy في كتابه عن التعذيب في ثلاث ديموقراطيات غربية (بريطانيا، والولايات المتحدة، وإسرائيل)، قائمة بالأهداف المحددة للتعذيب على النحو الآتي: «الحصول على معلومات، والعقاب، وإجبار فرد ما على تغيير معتقداته أو ولاءاته، وترويع مجتمع»[18]، إن الهدف الثالث هو أكثر ما يذكر بغسيل الدماغ. يذكر عالم النفس إرفين ستاوب Ervin Staub أن الدوافع للتعذيب يمكن أن تكون واقعية، مثل الترهيب لتعزيز السيطرة السياسية، أو (نفسية أكثر)، مثل «الانتقام من ضرر حقيقي أو خيالي أو الرغبة في تحقيق تفوق المرء ورفعة ذاته»[19]. مرة أخرى، هذا التأكيد على السيطرة يذكِّر بالرغبة في الاحتلال الشامل الذي يميز حلم التحكم في العقل.

التعذيب، مثل باقي الأشكال المتطرفة لإيقاع الأذى، يمكن -كما يقول ستاوب Staub- «أن يحلل على ثلاثة مستويات؛ يقع في المستوى الأول علم نفس الجناة منفردين، وعلى المستوى الثاني يمكن دراسة الجناة وصانعي القرار كمجموعة، والمستوى الثالث من التحليل هو استكشاف خصائص الثقافة والآليات التاريخية ضمن مجتمع ما، التي تؤدي إلى الآليات النفسية والدوافع التي تقود على الأغلب إلى فعل ضار جدًّا». يستمر ستاوب Staub في مناقشة العوامل النفسية الاجتماعية: طاعة السلطة، والتمييز بين المجموعات الداخلية والمجموعات الدخيلة، ودور المذهب الفكري، وانتشار المسؤولية، والطبيعة التطورية المتدرجة في التحول إلى جلاد.

يؤكد كونروي Conroy أيضًا الجوانب الاجتماعية للجلاد؛ فمثلًا يناقش ما أسماه (صف المعذبين): مجموعة من أفراد المجتمع الذين يُحكَم بأن تعذيبهم مقبول اجتماعيًّا. نظريًّا، إذا سُئلنا، فقد نقول جميعًا إنه يجب ألا يُعذَّب أحد؛ ولكن الناس عمليًّا أكثر مرونة. يحاجج كونروي Conroy أنه «من السهل إدانة التعذيب عندما يطبق على شخص ليس من أعدائك»، وأن التعذيب «يثير احتجاجًا قليلًا ما دام أن تعريف صف المعذبين يقتصر على أفراد الرتب الأدنى؛ وأنه كلما اقترب التعذيب من عتبة بيت المرء، أصبح أكثر إثارة للاحتجاج»، وأن «صف الناس الذين يقبل المجتمع أنه يمكن تعذيبهم له قابلية للتوسع»، وأنه «في الأماكن التي يشيع فيها التعذيب، يكون التعاطف القانوني عادة مع الجناة، وليس مع الضحايا»؛ بمعنى آخر، يحدث كثير من عمليات التعذيب في ظروف يعرف فيها الجناة أن المجتمع الأوسع الذي يعملون فيه إما يوافق صراحة على أفعالهم، أو يغض الطرف عنهم، إذ كثيرًا ما يدخل تفكير (العالم العادل): فيفترض المتفرجون أن السلطات المعذِّبة تعرف بالتأكيد ما تفعله، ومن غير المحتمل أنهم ساديون؛ أي إن سلوكهم منطقي وعادل، لذلك يستنتج المتفرجون- بوعي أو من غير وعي- أن ضحية التعذيب لا بد أنها كانت تستحق مثل هذه المعاملة؛ ومن ثم تستحق الازدراء. يمكن أن يؤدي هذا الاستنتاج إلى عدائية شديدة نحو الضحية، كما يبين رحَّال الشاعر روبرت براوننج Robert Browning:

«لم أشاهد أبدًا غاشمًا أكرهه كثيرًا؛

لا بد أنه شرير ليستحق هذا العذاب».

براوننج، تشايلد رولاند إلى برج الظلام جاء

Browning, Child Ronqaald to the Dark Tower Came

هذه الاستهانة بالأبرياء أمر شائع، جانب مأساوي من التعذيب.

الخلاصة والاستنتاجات

يتضمن غسيل الدماغ التسلل أو الإكراه بدلًا من الإقناع المنطقي، وهو يشترك بأوجه عدة مع التعذيب، الذي كان قد تطور منه، ويتضمن كثيرٌ من توصيفات غسيل الدماغ المزعومة تعذيبًا نفسيًّا أو جسديًّا. يسعى كل من غسيل الدماغ والتعذيب إلى الهيمنة على الضحية، وقد يكون التعذيب أقل اهتمامًا بمصلحة الضحية من غسيل الدماغ، عندما يعرف مثلًا الجلاد مسبقًا

أن الضحيـة سـوف تمـوت، لكنهما كليهما يشـتركان في العقلية الشـمولية، معتبريـن الضحية من الناحيـة البيروقراطية، بدلًا من ناحية شـخصية، أداة يمكن التلاعـب بها، ويهدف كلاهما أيضًا إلى إلغاء الهوية المسـتقلة للضحية، مثل هذه الاسـتقلالية لا تتوافق مع السيطرة الشمولية، سواء للجسم أو للعقل.

سوف أستكشف في الفصل القادم الدرجات المختلفة من التأثير، والإقناع، والإكراه، ممعنًا في الوسائل التي يمكن أن تتفاوت بها تقنيات التحكم العقلي.

opeika.com